قوائم المحتويات متاحة على المجلات الاكاديمية العراقية
مجلة البحوث والدراسات الاسلامية
الصفحة الرئيسية للمجلة: https://djisrs.dws.gov.iq

الخطاب المضاد في سرديات التوحيدي (الامتاع والمؤانسة) نموذجا

The Counter-Discourse in Al-Tawhidi's Narratives (Al-Imtaa' wal-Mu'anasa) as a Model

أ.م. د يسرى خلف حسين/جامعة بغداد / كلية التربية أبن رشد/ قسم اللغة العربية*

Keywords

Abū Ḥayyān al-Tawḥīdī – Al-Imtāʿ wa al-Muʾānasa – Counter-discourse – Authority – Cultural Context – Rhetorical Irony

Abstract

This research seeks to analyze the discourse of Abū Ḥayyān al-Tawḥīdī in his book Al-Imtāʿ wa al-Muʾānasa, by tracing the manifestations of counter-discourse that he employs against the dominant political, religious, and cultural structures of his time. The study is grounded in an exploration of the historical and cultural context in which al-Tawḥīdī lived—an era marked by political and intellectual turmoil that provided fertile ground for the emergence of such discourse

The research adopts Michel Foucault's concept of discourse, viewing it not merely as speech, but as a knowledge-based practice that produces meaning under specific historical and cultural conditions. It also incorporates ʿAbd al-Wāsiʿ al-Ḥamīrī's formulation of counter-discourse, understood as a concealed mode of resistance that operates within the dominant power structure through rhetorical tools like irony, paradox, and semantic deviation

Analytical models from Al-Imtāʿ wa al-Muʾānasa are presented to demonstrate how al-Tawḥīdī navigates multiple discursive modes—philosophical, linguistic, literary, and social—reflecting the crisis of the marginalized intellectual. The study concludes that al-Tawḥīdī's voice embodies a layered discourse that merges literary aesthetics with subtle critique, positioning his writing as an act of symbolic resistance and a means of redefining the self and the world amid a fragmented reality

معلومات المقال

تاريخ المقال:
الإرسال:
المراجعة:
القبول: ٢٠٢٦/٦/١م
الكلمات المفتاحية:
أبو حيان التوحيدي – الإمتاع والمؤانسة – الخطاب المضاد – السلطة – السياق الثقافي – السخرية البلاغية.

ملخص

يسعى هذا البحث إلى تحليل خطاب أبي حيان التوحيدي في كتابه الإمتاع والمؤانسة، عن طريق تتبّع مظاهر الخطاب المضاد الذي يمارسه التوحيدي تجاه البُنى السلطوية السياسية والدينية والثقافية في عصره. وقد اعتمد البحث على دراسة السياق التاريخي والثقافي الذي نشأ فيه التوحيدي، وما رافقه من اضطرابات سياسية وفكرية شكّلت أرضية خصبة لتكوّن هذا النوع من الخطاب.

تناول البحث مفهوم الخطاب كما طوّره ميشال فوكو، الذي لا يراه مجرّد كلام، بل ممارسة معرفية تُنتج المعنى في ظل شروط تاريخية وثقافية معيّنة. كما استُحضِر مفهوم الخطاب المضاد كما بلوره عبد الواسع الحميري، بوصفه خطابًا متخفّيًا يعمل داخل نسق السلطة عبر آليات بلاغية مثل السخرية والمفارقة والانزياح الدلالي.

وقد قُدّمت نماذج تحليلية من الإمتاع والمؤانسة تُظهر تنقّل التوحيدي بين أنماط خطابية متعدّدة (فلسفية، لغوية، أدبية، اجتماعية) تُعبّر عن أزمة المثقف المهمّش. وخلص البحث إلى أن التوحيدي جسّد بصوته خطابًا مزدوجًا يجمع بين الجمالية الأدبية والنقد الخفي، مما يجعل خطابه فعلًا من أفعال المقاومة الرمزية، ومحاولة لإعادة تعريف الذات والعالم في ظل واقع مأزوم.

* Corresponding author at **Dr. Yusra Khalaf Hussein/University of Baghdad / Ibn Rushd College of Education / Department of Arabic Language**

١. المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

يُعدّ أبو حيان التوحيدي (ت ٤١٤هـ/١٠٢٣م) من أكثر الشخصيات الفكرية إثارةً للجدل في الثقافة العربية الإسلامية، فهو لم يكن كاتبًا عابرًا في سجل التراث، بل مفكرًا متمرّدًا، يقف على تخوم الحيرة والأسى، ويكتب من موقع المثقف المهمّش الذي لم تحِطْه السلطة برعايتها، ولم يُنصفه مجتمعه. جمع بين عمق الفلسفة وحرارة الأدب، وسكب تجاربه الفكرية والإنسانية بلغة مشبعة بالتوتر، والسخرية، والأسى، حتى باتت نصوصه مرآة قلقة لذاته القلقة، وصرخة في وجه السائد من القيم والخطابات.

ومن بين أعماله المتعددة، يبرز كتاب الإمتاع والمؤانسة، لا بوصفه أثرًا أدبيًا فحسب، بل باعتباره مشروعًا فكريًا قائمًا بذاته، يُقدَّم في ثوب "المسامرة" بينما يُخفي في جوهره خطابًا نقديًا مضادًا، يقوّض السائد من أنساق السلطة: السياسية، والدينية، والثقافية. ففي ثنايا هذا النص الحواري، يُمارس التوحيدي تفكيكًا ناقدًا للبنى الفكرية والاجتماعية، عبر تقنيات بلاغية وسردية معقّدة: من التناص، والتشظي، والتضمين، إلى السخرية والنقد الضمني، ممهّدًا بذلك لخطاب ثقافي بديل، أكثر إنسانية وتمرّدًا.

ينطلق هذا البحث من قراءة الإمتاع والمؤانسة نصًا يؤسّس لما يُعرف اليوم بـ"الخطاب المضاد"، وهو خطاب لا يُعارض السلطة بشكل مباشر فقط، بل يسعى إلى فضح بنيتها الرمزية والمعرفية، وطرح بدائل فكرية تحمل بذور المقاومة الثقافية. ومن هنا، فالتوحيدي لا يُقرأ مجرد أديب ناقد، بل بوصفه مثقفًا بالمعنى الحديث، يُنتج معرفة قلقة، تمثّل وعي الفرد في لحظة الانسحاق الجماعي.

يهدف هذا البحث إلى تفكيك آليات هذا الخطاب في نصوص التوحيدي، مركزين على الإمتاع والمؤانسة بوصفه نموذجًا واعدا بالتحليل العميق؛ حيث نروم الكشف عن الاستراتيجيات التي استخدمها التوحيدي لتمرير خطابه الناقد في ظل مناخ ثقافي وسياسي متوتر. كما نحاول تأصيل المفهوم نظريًا، واستجلاء تجلياته النصّية، واستبطان الأبعاد الجمالية والاجتماعية التي تحكم هذا النوع من الكتابة.

تتمثل إشكالية البحث في السؤال الرئيس: كيف شيد التوحيدي، عن طريق بنية "الإمتاع والمؤانسة" وتقنياته، خطابًا مضادًا يُقوّض به الخطابات المهيمنة؟ وما السبل البلاغية والسردية التي وفّرت له إمكانية تمرير هذا الخطاب في بيئة تنظر بعين الشك إلى كل فكر مغاير؟

تكمن أهمية هذا البحث في أنها تُعيد قراءة التراث من منظور معاصر، يكشف عن المساحات التي مارس فيها المثقف العربي القديم مقاومته الصامتة، ويوائم بين النقد الأدبي والنقد الاجتماعي والثقافي. وبهذا، فإننا لا نعيد إحياء التوحيدي فحسب، بل نعيد إليه صوته الذي أراد أن يُسمع على الرغم من كل شيء.

ينطلق هذا البحث من **تمهيد** مزدوج:

أولًا: عرض موجز لحياة التوحيدي، وسمات تجربته الثقافية.

ثانيًا: توضيح مفهوم الخطاب والخطاب المضاد كما تنظّر لهما الدراسات الحديثة.

ثم يُقسم البحث إلى **ثلاثة مطالب رئيسة:**

المطلب الأول: يذكر السياق التاريخي لعصر التوحيدي، ويتوقف عند أثره في تشكّل الخطاب في الإمتاع والمؤانسة، مع دراسة السياق الثقافي والفكري الذي كان يعيش فيه التوحيدي، ومظاهر هذا السياق في الرسالة السادسة من الكتاب، بما تحمله من إشارات نقدية وأفكار فلسفية تسجّل حضورًا لافتًا للهمّ الاجتماعي والسياسي.

ويأتي المطلب الثاني: يعالج مفهوم الخطاب كما صاغه ميشال فوكو، ويتتبّع تطبيقاته الممكنة في الإمتاع والمؤانسة، عن طريق مثال تطبيقي يبرز بنية الخطاب في بعض الرسائل. ثم ينتقل إلى مفهوم الخطاب المضاد وخصائصه كما طرحه عبد الواسع الحميري، لبيان كيفية اشتغال التوحيدي خارج النسق السلطوي المهيمن.

والمطلب الثالث: يستعرض مظاهر الخطاب المتعدد في الإمتاع والمؤانسة، عن طريق تحليل أنماط القول ووظائف المعنى، ويتبيّن كيف تتداخل أنماط السرد، والحجاج، والفلسفة، والحكاية، لتولّد خطابًا مركّبًا متعدد الطبقات، يعكس معاناة التوحيدي وهمومه المعرفية والاجتماعية.

ويختتم البحث **بخاتمة** تجمل النتائج المتوصل إليها، يليها قائمة **بالمصادر والمراجع** التي اعتمد عليها البحث.

"ختامًا، أتوجه بالشكر والحمد لله رب العالمين، الذي هداني وسدد خطاي لإتمام هذا البحث. وأسأله أن يجعله في ميزان حسناتي، وأن ينفع به."

التمهيد

أولًا: حياة التوحيدي

هو علي بن محمد بن العباس أبو حيان التوحيدي شيرازي الأصل، ويقال نيسابوري. وذكر بعض العلماء والأدباء أنه يُعرف أيضًا باسم الواسطي.(١)

اختلفت الآراء حول أصله وموطن نشأته، فقيل إنه وُلد عام ٣١٠ هـ في بغداد، ثم رحل إلى شيراز، وهناك قيل إنه من أصل شيرازي، وذكر آخرون أنه من نيسابور، أو من واسط (٢) وقيل أيضًا إنه وُلد عام ٣٢٠ هـ. أما ابن سندوب فقد حدد ميلاده في عام ٣١٢ هـ في مقدمة كتابه "المقابسات"، وهو من أسرة فقيرة، وقيل إن والده كان تاجرًا يبيع نوعًا من التمر يُعرف باسم "التوحيد"، ومن هنا أُطلق عليه لقب "التوحيدي" من قبل المؤرخين، نظراً لانتسابه لهذا الاسم. قضى طفولته في ظروف معاناة، فالتجأ إلى طلب العلم والمعرفة ملاذا، وكان له شغف عميق بالمعرفة، واشتغل بمهنة الوراقة، مما قربه كثيرًا من الكتب والمطالعة، وأتاح له التفاعل المباشر مع التراث العلمي والأدبي.(٣)

شهد العصر العباسي ازدهارًا كبيرًا في النثر العربي؛ حيث بدأ يزاحم الشعر في إبراز أغراضه المختلفة، من مدح وغزل، وهجاء، ومراثي، إذ صور النثر الحياة بشكل شامل، سواء على الصعيد السياسي، أو الاجتماعي، أو الثقافي، أو العقلي، وذلك عن طريق مجموعة متنوعة من الرسائل التي تشمل الأنواع الأدبية، والإخوانية، والرسمية، فضلا عن أدب السمر

(١) معجم الأدباء، ياقوت الحموي، المتوفى عام ٦٢٦هـ، بتحقيق إحسان عباس، الطبعة الأولى، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٣م، ج٥، ص١٩٢٣

(٢) طبقات الشافعية، ابن قاضي شهبة، تحقيق د. الحافظ عبد العليم خان، دار النشر: عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٠٧ هـ، ج ١، ص ١٨٥

(٣) أبو حيان التوحيدي، ناقدًا، كلالي مسعود، رسالة ماجستير ١٩٨٦م، جامعة وهران، الجزائر، ص ٧٥

والحكايات، التي تمثل جانبًا من الاتجاه الشعبي في مجالات النثر المختلفة. (١)

ويعد التوحيدي أحد أبرز كتّاب النثر القديم، وهو التلميذ الذي تخرج من مدرسة الجاحظ، ونجح في أن يحظى بمكانة عالية عند الكثير من الباحثين، على الرغم من الاختلاف الواضح حول سنة ولادته ووفاته، لكنه من المحتمل أنه عاش في الفترة بين العقد الثاني من القرن الهجري الرابع والعقد الأول من القرن الذي يليه. وُصف التوحيدي من قبل ياقوت الحموي بأنه شيخ الصوفية، وفيلسوف الأدب، وأديب الفلاسفة، ومحقق الكلام، ومتكلّم المحققين، وإمام البلغاء، لا نظير له في ذلك، وهو كثير التحصيل للعلوم في حفظه وذاكرة رواياته، وامتاز بخبرة واسعة ودراية عميقة (٢)وعدّه بعض الباحثين من فقهاء الشافعية والمؤرخين الكبار والمبرزين أيضًا (٣).

ثانيًا: مفهوم الخطاب والخطاب المضاد

في كتاب خطاب السلطة والخطاب المضاد، يُعرف الحميري الخطاب على أنه نسق لغوي وفكري يستخدم لإنتاج معانٍ وصياغة تصوّرات للعالم تستند إلى علاقات سليمة أو متوترة بين السلطة والمجتمع. الخطاب هنا ليس مجرد كلمات تُقال، بل هو بنية إيديولوجية تنسّق العنف الرمزي، وتضبط مجالات التعبير في ما يُسمح به، وما يُمنع.

خطاب السلطة: يتكوّن من خطاب المدح الرسمي والإعلام السلطوي، ويثبّط المعارضة عبر الهيمنة الرمزية.

الخطاب المضاد: يولد ردا على هذا الخطاب، ليس من الخارج بل ينشأ داخله، عبر جدل ضمني أو صريح ومناورة لغوية ذكية تسعى لكشف تناقضات السلطة دون مواجهتها مباشرة .

خصائص الخطاب المضاد وفق الحميري

١ــ الحضور داخل خطاب المدح

الخطاب المضاد يظهر في قلب النص المدحّي؛ فهو ليس معادياً من الخارج، بل يحاوره من داخله، مستخدمًا مفارقات بلاغية تفضح أيديولوجيا السلطة.

٢ــ وظائف متعددة

يتّخذ أشكالًا متنوعة: خطاب استفساري، أو دفاع ضمني، أو خضوع نقدي، أو رأي صادر عن المؤسسة، لكنّه دائمًا يحمل ذهنية نقدية خفية .

٣ــ المناورة الأسلوبية

يمزج اللغة الرسمية بالعامية، الأغنياء بالنخبة، النصوص المقدسة بالأدبية، في تهجين لغوي يدفع نحو فضح الصيغ المسلّطة.

٤ــ التهكم والمفارقة

يستخدم الحميري السخرية والتهكم كأدوات نقدية لطيفة تخترق المانع الرسمي دون الانحدار لمواجهة قهرية .

٥ــ مقاومة لغوية غير صريحة

يتجنب المواجهة المباشرة، ويعتمد على الإدماج المقنع لإحداث تغيير في الوعي دون إيقاظ رد فعل سلطوي مباشر. (٤)

وانطلاقًا من المفهوم النظري للخطاب والخطاب المضاد كما صاغه عبد الواسع الحميري، سيتم تقديم مثال تطبيقي من كتاب الإمتاع والمؤانسة، يُظهر كيف تتجلى هذه الخصائص داخل المتن السردي عند

(١) تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى، ج ٢، ١٩٨٤م، ص ٣٥٨

(٢) معجم الأدباء، ياقوت الحموي، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م، ج ٢، ص ٢٤٩

(٣) طبقات الشافعية الكبرى، السبكي، تحقيق محمود محمد الطناحي، مكتبة البابي الحلبي، الطبعة الأولى، ١٩٦٤م، ج ٣، ص ٣٤٥

(٤) خطاب السلطة والخطاب المضاد، عبد الواسع الحميري، ط١، ٢٠١٤، ص٩ - ١١

التوحيدي، عبر آليات بلاغية وفكرية تعكس صراع الخطابات في عصره.

ففي الليلة السابعة عشرة من الامتاع والمؤانسة يبدأ التوحيدي بمسألة لغوية (تَفْعال وتِفْعال)، ثم ينتقل تدريجيًا إلى موضوعات أعمق تمس:

ضمور الحركة العلمية.

انتقاده المبطن للمتكلمين.

موقفه النقدي من إخوان الصفا.

الدفاع الضمني عن الشريعة مع نبرة تهكمية على محاولات "التهجين بين الفلسفة والدين".

وهذا الانتقال السردي الذكي هو من أبرز أساليب الخطاب المضاد.

أن مواضع الخطاب المضاد توجد في:

«وهذا دليل على دثور الأدب وبوار العلم والإعراض عن الكدح في طلبه» (١)

ففي هذه الجملة يُظهر التوحيدي نقدًا واضحًا للحالة الثقافية والعلمية في عصره. النقد هنا ليس موجّهًا لسلطة سياسية، بل لما يمكن تسميته بـ "السلطة المعرفية المهترئة"، وهذا يندرج ضمن الخطاب المضاد للهيمنة الرمزية الثقافية، وهو ما يتطابق مع ما وصفه الحميري من أن الخطاب المضاد لا يهاجم دائمًا السيف، بل أحيانًا القلم.

«غرق الصواب فيها لغلبة الخطأ عليها." "تعبوا وما أغنوا، ونصبوا وما أجدوا، وحاموا وما وردوا... نسجوا فهلهلوا، ومشطوا ففلفلوا.» (٢)

هنا يظهر التهكم البلاغي الواضح، بأسلوب ساخر مكثّف. وهذا الأسلوب من أهم خصائص الخطاب المضاد كما حددها الحميري. التوحيدي لا يهاجم إخوان الصفا هجومًا مباشرا، بل يفضح تعقيدهم الفارغ عن طريق تصوير بلاغي يجعلهم أقرب إلى "العاجزين المتفلسفين"

«ظنوا أنهم يمكنهم أن يدسوا الفلسفة... في الشريعة... وهذا مرام دونه حُدد». (٣)

هنا العبارة تعكس خطابًا مضادًا مزدوجًا:

ظاهريًا: دفاع عن الشريعة.

ضمنيًا: تسفيه لمحاولات النخبة المثقفة التي تدّعي إدماج العقل الفلسفي في الدين، وهو خطاب "تقدّمي" لكنه عند التوحيدي سطحي ومضلّل.

وهذا التوتر بين ظاهر النص وباطنه هو ما يسميه الحميري بـ "الجدل الداخلي للخطاب المضاد"، أي حين يبدو الخطاب مؤيدًا لشيء لكنه يفككه من الداخل.

«وفي أثنائها ما لا سبيل إلى البحث عنه... وهناك يسقط (لِمَ) ويَزُول (هلّا) ويذهب (لو) و(ليت)»(٤)

وهنا المفارقة قوية جدًا. يظهر التوحيدي كأنه يدافع عن التسليم بالشريعة، لكنه يفعل ذلك بلغة تعري الفجوة بين الإيمان العقلي والتسليم المطلق. بهذا يُنتج خطابًا فلسفيًا نقديًا داخل سياق ديني، وهو ما يندرج ضمن ما يسميه الحميري "التشكيك الداخلي للنسق".

فأن الليلة السابعة عشرة من الإمتاع والمؤانسة تجسد الخطاب المضاد كما عرّفه:

ليس صاخبًا ولا عدائيًا،

بل ذكي، ساخر، ناقد من الداخل،

يتقن لعبة اللغة والمفارقة،

ويقدّم صراعًا هادئًا لكنه عميقًا مع البنى الفكرية والدينية والثقافية في عصره.

(١) الامتاع والمؤانسة، أبي حيان التوحيدي، بيروت لبنان، ٢٠١١، ج٢، ص١٦٢

(٢) الامتاع والمؤانسة، ج٢، ص١٦٤

(٣) المصدر نفسة، ص١٦٤

(٤) الامتاع والمؤانسة، ج٢، ص١٦٤

٢.المطلب الأول: السياق التاريخي لعصر التوحيدي وأثره في تشكيل الخطاب في الإمتاع والمؤانسة

شهد القرن الرابع الهجري، وهو العصر الذي عاش فيه أبو حيان التوحيدي، اضطرابات سياسية عميقة كان لها أثر بالغ في تشكيل الوعي الثقافي، وتحديد موقع المثقف داخل المجتمع، وصياغة أنماط الخطاب المتداولة. فقد تعاقب على الحكم في تلك المدة البويهيون ثم السلاجقة، في ظل وجود الخلافة العباسية التي فقدت كثيرًا من سلطتها الفعلية، لتتحول إلى كيان رمزي لا يملك من أمر الدولة شيئًا.

أسّس البويهيون، وهم أسرة فارسية الأصل، سلطتهم الفعلية على بغداد والعراق منذ منتصف القرن الرابع الهجري (٣٣٤هـ)، واستطاعوا أن يهيمنوا على مقاليد الأمور، مع الإبقاء على الخليفة العباسي واجهة شكلية. وقد تجلى نفوذهم في الألقاب الفخمة التي صكّوها لأنفسهم، وفي تحكّمهم بتعيين الخلفاء وخلعهم، حتى بلغ الأمر أن خلعوا الخليفة المستكفي وولّوا المطيع، ثم تتابعت مظاهر التدخل حتى صار الخلفاء لا يملكون سوى أسمائهم في خطب الجمعة وسكّ النقود.

بلغ نفوذ البويهيين ذروته في عهد عضد الدولة، الذي عُدَّ أعظم ملوكهم، وقد شهدت بغداد في عهده شيئًا من الانتظام الإداري والعمراني، لكنه لم يلبث أن توفي، وتقسمت الدولة بين أبنائه، فبدأت الدولة في الانحدار التدريجي، وتوالت الفتن والنزاعات والانقسامات، حتى ضعفت السلطة البويهية وانهارت في ظل صعود السلاجقة، وهم فرع من الأتراك الغُز الذين استقروا في بلاد فارس وخراسان ثم دخلوا بغداد سنة ٤٤٧هـ بطلب من الخليفة القائم بأمر الله، وأعادوا الاعتبار للخلافة السنية بعد مرحلة من التدخل الشيعي في الدولة. (١)

في هذا السياق المتقلب والمضطرب، وُلد الخطاب التوحيدي في الإمتاع والمؤانسة، وقد جاء معبّرًا عن مثقف مأزوم، مهمش، يعيش داخل دولة تهيمن فيها سلطة لا تستجيب لصوت العقل ولا تنصت إلى دعوات الإصلاح. ووسط هذه الهيمنة الرمزية التي فرضها خطاب السلطة، تتشكل داخل نصوص التوحيدي ملامح خطاب مضاد، متخفٍّ، حاذق، يبدي الطاعة الظاهرة، ويبطن النقد، ويعتمد على السخرية والتهكم والتحليل الثقافي المتوتر.

فالنقد الذي يوجّهه التوحيدي في كتابه لا يأتي مباشرة، بل يتموضع داخل الحوار، ويستند إلى مفارقات بلاغية ودلالية، ليشكّل ردًا داخليًا على الواقع دون أن يضع نفسه في موضع الصدام المباشر مع السلطة السياسية أو الفكرية. ومن ثم، فإن فهم الإمتاع والمؤانسة لا يكتمل دون استحضار هذا السياق التاريخي؛ لأنّ الكثير من خطاباته النقدية تُقرأ بوصفها استجابات خفية أو مناوشات ذكية مع النظام السياسي والاجتماعي الذي كان قائمًا

السياق الثقافي والفكري لعصر التوحيدي

إذا كانت الحياة السياسية في القرن الرابع الهجري قد تميزت بالاضطراب والانقسام، فإن ذلك لم ينعكس بالضرورة على الحياة الثقافية والفكرية، إذ لم يكن ثمة تلازم حتمي بين ضعف الدولة المركزية وبين النشاط العلمي والأدبي. فقد شهد هذا العصر – عصر أبي حيان التوحيدي – ازدهارًا ثقافيًا لافتًا، يرجع إلى استمرار الزخم العلمي الذي انطلق منذ القرن الثالث،

(١) تاريخ الادب العربي، عصر الدول والامارات شوقي ضيف، دار المعارف، ط ٢، ١١١٩، ص٢٣٣ ـ ٢٣٧

وحرص الأمراء المحليين من بني بويه والحمدانيين وغيرهم على احتضان العلماء والأدباء لإضفاء الشرعية على حكمهم وتجميل صورتهم.

كان بلاط بني بويه – وهم من الفرس الشيعة – عامرًا بالعلماء والأدباء، ومن وزرائهم البارزين المهلبي وابن العميد والصاحب بن عباد. وفي الموصل وحلب، وجد الشعراء في بلاط الحمدانيين، كسيف الدولة، بيئة حاضنة للإبداع، حيث اجتمع المتنبي وأبو الفرج الأصفهاني وابن خالويه وغيرهم. كما تميزت مصر الفاطمية بحركة علمية نشطة، وبرز فيها اهتمام بالأدباء مثل المتنبي في عهد كافور الإخشيدي.

ومن سمات هذا العصر أيضًا شيوع المدارس الفكرية والمذهبية المتعددة: فقد انتشرت الفرق الدينية والفلسفية وتزاحمت في المدن الكبرى، وبرزت النزاعات بين النحويين والمناطقة، وبين الفقهاء والمتكلمين، في مجالس ومناظرات تعكس حيوية العصر. (١)

وكان لأبي حيان التوحيدي حضوره الفاعل في هذا السياق الثقافي، فقد نهل من علوم متعددة كالنحو والفلسفة والمنطق والكلام، وتتلمذ على يد أعلام من أمثال أبي سعيد السيرافي ويحيى بن عدي ومسكويه. وكان ورّاقًا ونسّاخًا، ما أتاح له الاطلاع العميق على الكتب. ويكشف الإمتاع والمؤانسة عن هذه الخلفية الثقافية الثرية، فهو مرآة دقيقة للعصر البويهي من حيث وصفه للمجالس الفكرية، وتحليله لشخصيات العلماء، وتوثيقه للنقاشات الفكرية الكبرى، ومن ذلك مناظرته الشهيرة بين السيرافي ومتى بن يونس.

إن كتابات التوحيدي، ولا سيما الإمتاع والمؤانسة، تمثل ذروة التفاعل الثقافي والفكري في القرن الرابع، إذ جمع بين معارف متعددة، وعبّر عنها بأسلوب فني راقٍ يجعل منه شاهدًا حيويًا على نضج الثقافة العربية الإسلامية في تلك المرحلة.

تجلّيات السياقين التاريخي والثقافي في الرسالة السادسة من الإمتاع والمؤانسة

ففي الليلة السادسة، يفتتح الوزير المجلس بسؤال جدلي: «أتُفضل العرب على العجم أم العجم على العرب؟» (٢) سؤالٌ يفتح بابًا لصراع ثقافي وفكري قديم حول التفاضل بين الأمم. يرد التوحيدي بعقلية موسوعية، فيذكر تصنيف الأمم عند العلماء إلى أربع: الروم، والعرب، وفارس، والهند. ويلمح إلى صعوبة المفاضلة المطلقة، إذ لكل أمة فضائلها ونقائصها.

ثم يضرب مثلًا برأي ابن المقفع، الفارسي الأصل، الذي فاجأ النخبة العربية بقوله إن العرب «أعقل الأمم» (٣) لا لأنهم ورثوا الحضارة، بل لأنهم استنبطوها من عقولهم. لم يتلقّوا دينًا سماويًا ولا نظامًا مكتوبًا، فكانت الحاجة أمّ الاختراع، فاجتهدوا في معرفة الطبيعة والأنواء والفصول والنجوم واللغة والمعاش.

ويرى ابن المقفع أن العرب أمة تفاعلت مع بيئتها الصحراوية القاسية، فطوّرت عقلًا عمليًا، ومنظومة قيم تُعلي من الكرم، والنجدة، والوفاء، والفصاحة، والأنفة. ويُستنتج من هذا أن الفضل، في رأيه، لا يُقاس فقط بالعلوم المدونة، بل بالملكات الفطرية والتجارب العقلية المحضة.

بعد هذا، يُسهب التوحيدي في تأمل مسألة التفاضل، مؤكدًا أن "الفضل لا يُحصر في أمة، ولا

(١) ابو حيان التوحيدي فيلسوف الادباء وأديب الفلاسفة، أحمد عبد الهادي، دار الثقافة القاهرة، ١٩٩٧، ص٣٣ ـ ٤٢

(٢) الامتاع والمؤانسة، ج١، ص٧٠

(٣) المصدر نفسة، ج١، ص٧٠

يُنكر على أخرى". ويستعرض مناقب كل أمة: الفرس بالسياسة، الروم بالحكمة، الهند بالفكر، الزنج بالصبر، العرب بالبيان والفروسية. ويقرر أن الفضائل موزعة على الأمم بتقدير من الله، وأن لكل أمة زمانًا تتفوق فيه، وزمانًا تنحسر فيه عظمتها.

ويهاجم التوحيدي الجيهاني، أحد الكتّاب الذين حطّوا من قدر العرب، متهمًا إياه بالجهل والتعصب؛ إذ اختزلهم في مظاهر الفقر والخشونة، متجاهلًا أن الفقر ليس نقيصة، بل قد يكون باعثًا على الحيلة والابتكار، وأن العرب رغم بداوتهم تميزوا بأسواقهم، وشعرهم، وتحالفاتهم، ومكارمهم، قبل أن تتوجهم الرسالة المحمدية بمجد الدين والسيادة.

وفي ختام الرسالة، يستعرض التوحيدي مسألة "العقل والدين" بوصفها المعيار الحقيقي للتفاضل، لا النسب ولا المال ولا الجغرافيا. ويهاجم بعض العقائد الفارسية (كالزردشتية) على خلفية ما رآه منكرًا في أخلاقهم الاجتماعية، كنكاح المحارم، مستشهدًا بأن هذا يخالف الفطرة والعقل والدين.

يُكتب هذا الحوار في عصر اشتدت فيه التوترات الثقافية بين العرب والعجم، بعد قرون من التلاقح الحضاري في ظل الدولة العباسية. فالثقافة العربية الإسلامية بدأت تواجه تحديات جدية من الفرس، الذين سعوا إلى استعادة مجدهم الحضاري عبر الكتابة، والفكر، والمنافسة في مجالات اللغة والأدب.

التوحيدي، المثقف العقلاني، لا يقع في فخ العصبية القومية، بل يتبنى موقفًا نقديًا. يعترف بفضائل الأمم جميعًا، ويقف على مسافة واحدة من الجميع، لكنه يرد بعنف على من يتعصب ضد العرب ويزدري إرثهم الأخلاقي واللغوي، كما فعل الجيهاني. وهذا يدل على تحوّل في الوعي الثقافي، حيث لم يعد العرب يحتكرون الفخر، بل صاروا في موقع الدفاع الفكري.

أما السياق التاريخي: فإن هذه الرسالة تأتي في نهاية القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، وهو زمن بدأت فيه قوة الدولة المركزية بالضعف، وتنامى فيه نفوذ العجم، خاصة الفرس، في دواوين الدولة العباسية، وتصدّروا مشهد الكتابة والتأليف والفكر. في هذا السياق، أصبحت مسألة "الهوية" مطروحة بإلحاح: من الأحق بالقيادة الثقافية؟ العرب أم العجم؟

التوحيدي يكتب في ظل هيمنة فارسية ناعمة على الثقافة، لكنه لا يستسلم لهذا التيار. بل يحاور، ويجادل، ويحتكم إلى العقل، والعدل، والتاريخ، وينتصر لفكرة التعدد، ويرفض الاحتكار العرقي للفضل.

نلاحظ استخدام التوحيدي لبنية جدلية محكمة:

يبتدئ برأي الآخر (الجيهاني).

يعرض موقف ابن المقفع.

يقارن بين الأمم.

يفند بالأمثلة والشواهد.

يُعلي من العقل والفطرة.

يختم بالحجة الدينية والنقل عن القرآن.

كل ذلك بأسلوب بلاغي مشبع بالفن الأدبي، يعكس وعي التوحيدي بوظيفة اللغة كأداة دفاع وحجاج وحوار.

٣.المطلب الثاني: مفهوم الخطاب عند ميشال فوكو

يعد ميشال فوكو من أبرز المفكرين الذين أسهموا في تطوير مفهوم الخطاب ضمن الحقلين الفلسفي والمعرفي، إذ انتقل به من دلالته التقليدية، التي تُحيل إلى مجرّد الكلام أو الحديث المنظم، إلى دلالة أكثر تعقيدًا وعمقًا، تُقارب الخطاب بوصفه ممارسة معرفية

ونظامًا لإنتاج المعنى داخل سياقات تاريخية وثقافية محددة.

يرتبط الخطاب عند فوكو، في جذوره الأولى، بالتقاليد الفلسفية والمنطقية، بوصفه عملية عقلية ومنهجية، تقوم على نسق من العمليات الفكرية المنظمة التي يُعبَّر عنها من خلال ألفاظ وقضايا مترابطة. غير أن فوكو لا يتوقف عند هذه النظرة الكلاسيكية، بل يتجاوزها ليؤسس لنمط جديد في تحليل الخطاب، يرتكز على ما يسميه بـ"أركيولوجيا المعرفة"، وهو الحفر في الطبقات المعرفية التي تشكلت عبر التراكم التاريخي للمنطوقات.

في هذا السياق، يُعرّف فوكو الخطاب بكونه مجموعًا من "المنطوقات" التي لا تُعدّ وحدات بلاغية قابلة للتكرار فحسب، بل هي وحدات ذات وجود تاريخي مشروط، تنتمي إلى "تشكيلات خطابية" تخضع لقواعد صارمة في الظهور، والتداول، والإنتاج. وهذه التشكيلات لا تُنتج المعنى عبثًا، بل وفق شروط ثقافية وتاريخية تحكم ما يمكن قوله، وما يُمنع، ومن يحق له أن يقول، ولأي غرض.

يبين فوكو في أركيولوجيا المعرفة أن المنطوق يمثل الوحدة الأساسية للخطاب، وهو ليس مجرد جملة لغوية أو قضية منطقية، بل هو حدث لغويّ له شروط إنتاج وتحقق. وهذا الحدث يتمتع بصفة "المادية"، أي أنه متجسد في اللغة، قابل للتوثيق، والتداول، والتكرار، لكنه في الوقت ذاته لا ينفصل عن شروطه التاريخية ولا عن السياق الذي ظهر فيه.

ولأجل تحديد مفهوم المنطوق بدقة، يميّزه فوكو عن مفاهيم أخرى مثل اللغة، والجملة، والقضية، والفعل اللساني. فهو يرى أن المنطوق يشبه الجملة من حيث التكوين اللغوي، ولكنه لا يُقوّم على أساس النحو وحده. كما أنه يقترب من الفعل الكلامي، لكنه لا يقتصر على الوظيفة التداولية المباشرة. أما من حيث علاقته باللغة، ففوكو يقرّ بأن اللغة لا وجود لها إلا بوصفها منظومة ممكنة لإنتاج منطوقات، لكنها لا تتحدد بالمنطوقات الواقعة وحدها، بل تتجاوزها إلى البنية النظامية التي تُتيح إمكان ظهور تلك المنطوقات.

ويعد الخطاب عند فوكو أيضًا فعلًا سلطويًا. فكل خطاب هو مشاركة ضمن منظومة السلطة والمعرفة، إما في إطار إعادة إنتاجها، أو في نطاق مقاومتها من داخلها. ومن هنا جاءت أهمية الخطاب لا بوصفه مجرد أداة تواصل، بل ممارسة تُعيد تشكيل الواقع، وتضبط حدود التفكير، وتُقصي ما لا يتوافق مع النظام المعرفي السائد.

لقد طبق فوكو تحليله للخطاب على مجالات متعددة، مثل الطب، والجنون، واللغة، والاقتصاد، والدين، مبينًا أن لكل مجال "تشكيلًا خطابيًا" يحكمه، يحدد نوع المعرفة الممكنة فيه، وطريقة تمثيلها، وأشكال تداولها. لذلك لم يكن الخطاب عنده مجرد مجموعة من النصوص أو الأقوال، بل نظامًا كاملاً من السلطة والمعرفة، يُنتج الذوات ويحدد المواقف، ويؤسس للشرعية أو الإقصاء.

لذا، فإن فوكو أسّس لمنظور جديد يتجاوز التحليل اللساني المحض إلى دراسة الخطاب بوصفه ممارسة اجتماعية، لها قواعد وشروط، وتؤثر في تشكيل الفكر والواقع معًا. ومن هذا المنطلق، يُصبح تحليل الخطاب وسيلة لفهم البنى العميقة التي تنظّم المجتمعات وتوجّه رؤيتها للعالم. (١)

(١) مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، الزواوي بغورة، ١٩٩٨، ص٩٣ - ٩٩

خطاب الامتاع والمؤانسة

إذا ما تأملنا الخطاب الوارد في الليلة التاسعة والعشرين من كتاب الإمتاع والمؤانسة، وجدناه يجسّد مقولة فوكو بأن الخطاب ليس مجرد ملفوظات لغوية متتابعة، بل هو ممارسة معرفية لها شروطها الخاصة و"تشكلها الخطابي" الذي يُنتج المعنى داخل لحظة ثقافية وتاريخية محددة.

يبدأ الوزير كلامه بطرح سؤال في التأمل الإلهي ضمن آية: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ (١) ليأتي جواب أبي حيان مشكّلًا بنية خطابية تدمج الفلسفة بعلم الكلام، والمجاز بالتحليل العقلي. وفقًا لفوكو، فإن ما يجري هنا لا يُعدُّ خطابًا دينيًا صرفًا ولا فلسفيًا خالصًا، بل ممارسة خطابية تتشابك فيها الحقول المعرفية وتُنتج "منطوقات" تعبّر عن نمط التفكير في الإله، والإنسان، والمعرفة.

يتجلى مفهوم المنطوق في هذا النص بعدد من التصريحات التي تتجاوز الجملة اللغوية إلى مستوى الحدث الخطابي، مثل قوله:

«وقد بان بالاعتبار الصحيح أنه عَزَّ وَجَلَ لمَّا كان مُحجباً عن الأبصار، ظَهَرَتْ آثاره في صفحات العالم...» (٢)

هذه العبارات لا تُفهم على أنها جُمل بلاغية، بل تمثل تموضعات فكرية داخل "تشكيلة خطابية" تتفاعل فيها اللغة والمعنى، الحس والعقل، الغيب والشهادة، ضمن منطق مخصوص يعبّر عن زمنه ورؤيته للعالم.

كما يظهر النص قدرة الخطاب على التحول والانتقال بين مجالات متعددة: من تأمل لاهوتي، إلى تفسير فلسفي، إلى نقاش لغوي ونحوي ومعجمي، ثم إلى حديث اجتماعي عن فساد الزمان والناس. هذا التنوّع يؤكد ما ذهب إليه فوكو من أن الخطاب "لا يُختزل في وحدة بلاغية قابلة للتكرار، بل في عدد محصور من المنطوقات تحدد شروط وجودها داخل مجال معرفي مخصوص".

وإذا ما نظرنا إلى الجزء الأخير من النص، الذي يعرض حال الناس وأرباب السلطة والدين والتجارة، فسنجد فيه ممارسة خطابية مقاومة تشتبك ضمنيًا مع ما يمكن تسميته "خطاب السلطة" السائد، إذ يُظهر التوحيدي عن طريق هذه الحكاية تفسّخ البنى الاجتماعية، وغياب القيم، دون أن يعلن صراحة موقفًا سياسيًا مباشرًا. وهذا ينسجم مع ما يسميه فوكو بـ"الخطاب الذي يمارس النقد داخل شروط السلطة ذاتها"، حيث يتموضع القول بين الانكشاف والاحتجاب، بين الجرأة والاحتراز

مفهوم الخطاب المضاد وخصائصه عند عبد الواسع الحميري

يعد الخطاب المضاد من المفاهيم الأساسية في تحليل علاقة المثقف بالسلطة، وهو مفهوم تطوّر بوصفه ردّ فعل على هيمنة الخطاب السلطوي في مختلف صوره السياسية والدينية والثقافية. وقد قدّم عبد الواسع الحميري معالجة دقيقة لهذا المفهوم في كتابه خطاب السلطة والخطاب المضاد، حيث رأى أنّ الخطاب المضاد لا ينشأ من فراغ، بل ينبثق من صلب خطاب السلطة، متخذًا منه منطلقًا للنقد والمقاومة.

يرى الحميري أن الخطاب السلطوي هو الخطاب الذي يُعبّر عن هيمنة السلطة المطلقة، ويقوم على ترسيخ قيم الخضوع والتبعية، ويصدر عادة عن مؤسسات رسمية أو أشخاص مرتبطين بالسلطة سياسيًا أو أيديولوجيًا. أما الخطاب المضاد، فهو خطاب

(١) الامتاع والمؤانسة، ج٣، ص٢٨٤
(٢) المصدر نفسة، ج٣، ص٢٨٤

المقاومة والتحرّر من هيمنة هذا الخطاب السلطوي، ويعمل على تقويضه من الداخل، من دون أن يدخل في مواجهة مباشرة معه دائمًا.

ويميز الحميري بين الخطابين من حيث المرجعية والبنية والأسلوب والهدف، فالخطاب السلطوي يعيد إنتاج السلطة ويكرّس رموزها، بينما يسعى الخطاب المضاد إلى خلخلة هذه السلطة، وفضح تناقضاتها، غالبًا عبر أساليب غير مباشرة. ولأنّ السلطة تمتلك أدوات القمع والسيطرة، فإنّ الخطاب المضاد يتحرّك بحذر، ويلجأ إلى استراتيجيات بلاغية دقيقة، تجمع بين التورية، والسخرية، والازدواج الدلالي.

من أبرز خصائص الخطاب المضاد كما يحددها الحميري:

ــ التخفّي داخل خطاب السلطة: الخطاب المضاد لا يجاهر بمعارضته، بل يتخفّى داخل خطاب المديح أحيانًا، ليبثّ نقده عن طريقه، مستفيدًا من المساحات الرمزية المتاحة.

ــ الازدواج الدلالي: يستثمر إمكانات اللغة البلاغية لتوليد معانٍ مزدوجة، يظهر ظاهرها التأييد، ويبطن باطنها الاعتراض أو السخرية.

ــ المناورة الأسلوبية: يجمع الخطاب المضاد بين الرسمي والشعبي، والمقدّس واليومي، ليفضح تناقضات الخطاب السلطوي ويخلخل استقراره.

ــ التهكّم والسخرية: تُستخدم أدوات بلاغية كالتهكّم والتعريض لتقويض هيبة السلطة دون صدام مكشوف معها.

ــ التحرّك داخل النظام الرمزي ذاته: لا يأتي الخطاب المضاد من خارج المنظومة، بل يعمل ضمنها، ممارسًا نوعًا من التهريب الدلالي الذي يزعزع استقرار المعنى الرسمي.

ويؤكد الحميري أنّ الخطاب المضاد يمتلك قدرة خاصة على التعبير عن الهامش والمقموع والمهمّش، وأنه كثيرًا ما يتحوّل، مع تغيّر السلطة، إلى خطاب سلطوي جديد، مما يكشف عن الطبيعة المتحوّلة للخطابات في سياق الصراع الاجتماعي والثقافي.

بهذا، فإن الخطاب المضاد كما يصوّره الحميري ليس مجرد معارضة، بل هو فعل لغوي وثقافي معقّد، يُجيد التحايل على شروط الهيمنة، ويخلق إمكانيات جديدة للتفكير خارج النسق الرسمي. (١)

٤.المطلب الثالث: الخطاب المتعدد في الإمتاع والمؤانسة: أنماط القول ووظائف المعنى

ففي (الليلة الثانية والعشرون) (٢) نلاحظ تركيز التوحيدي على عرض أفكار أبي الحسن العامري، ومن ثمّ مناقشتها وتوسيعها عن طريق أبي النضر نفيس وأبي سليمان المنطقي وغيرهم. يتجلّى هنا ما يمكن تسميته بـ"الخطاب الفلسفي التداولي"، حيث لا يُعرض القول الفلسفي عرضًا جامدًا، بل يدخل ضمن حوار حيٍّ تتخلله التفسيرات والتعليقات والأسئلة، في تداخل بين المنقول والمعقول، والتجربة الفردية والمعرفة المتوارثة.

ومن أبرز سمات هذا الخطاب في النموذج:

ــ بناء جدلي للحقيقة: لا تعرض الفلسفة حقيقة نهاية، بل حوار مفتوحًا، حيث يُرد القول بالقول، وتُواجه الأطروحة بأخرى، مما يشي بأن الحقيقة في هذا السياق لا تُفرض، بل تُنتج عبر النقاش.

ــ تعدد الأصوات: يحضر في النص صوت أبي الحسن العامري، ويعقبه تعليق من الوزير أو من أبي

(١) خطاب السلطة والخطاب المضاد، عبد الواسع الحميري، ط١، ٢٠١٤، ص٩ـ ١٢

(٢) الامتاع والمؤانسة، ج٢، ص٢١٣ـ ٢١٧

حيان أو أبي سليمان أو أبي النضر، مما يمنح الخطاب طابعًا تعدديًا، يتجاوز أحادية القول إلى "مداولة فكرية".

ــ التشاكل بين المعرفي والأسلوبي: إذ تُصاغ المفاهيم الفلسفية بأسلوب بلاغي مميز، غنيّ بالصور المجازية والاستعارات: كقول أبي النضر عن العقل والطبيعة بأن أحدهما في العلو والآخر في السفل، وأن العلاقة بينهما تتم بالمناولة والتناول. هذا المزج بين المجرد والمحسوس يعكس وظيفة جمالية داخل الخطاب الفلسفي.

ــ تحوّل المعرفة إلى سرد: يُلاحظ أن عرض الأفكار يتم بطريقة سردية، بحيث تصبح الفلسفة حكاية، ويصبح الفيلسوف "شخصية" من شخصيات السرد الثقافي، لا مجرد ناقل للمعنى العقلي.

ــ نقد المعرفة من داخلها: لم يكتفِ التوحيدي بعرض أفكار العامري، بل سمح بصوت نقدي (مثل أبي النضر) أن يعترض على تلك الأفكار، كما في رفضه القول بالفلك المستقيم والفلك المائل بوصفهما علّتين للأنواع والأشخاص، واعتبار ذلك تلفيقًا. هذا يُظهر وعيًا بنسبية القول الفلسفي وتحوّله ضمن أفقٍ تداولي.

إذًا، لا ينحصر خطاب التوحيدي الفلسفي في إعادة إنتاج القول اليوناني أو الإسلامي السابق، بل يشارك فيه بوصفه منتِجًا للمعرفة، ويوسّع من مداه عبر الحوار، والمفارقة، والتعليق، والتقويض.

وفي (الليلة الحادية والعشرون) فيه الخطاب الجمالي والعقلي في جدل الطرب والمعرفة في هذه الليلة، ينفتح الخطاب التوحيدي على تأمل جمالي وفلسفي في موضوع يبدو بسيطًا في الظاهر: لماذا يكون صوت المغني أكثر لذة حين يرسله آخر؟ لكنه يتحول، تحت يد أبي سليمان وأبي حيان، إلى معالجة عميقة تتداخل فيها علوم الإدراك الحسي، ونظرية الموسيقى، ومقامات النفس والعقل، فتنبثق شبكة معقدة من المعاني تستند إلى خطابٍ:

جمالي يتأمل أثر الصوت والموسيقى على النفس،

ومعرفي يستقصي أثر الحواس في تحريك الشوق إلى المعقول،

وفلسفي وجودي يتأمل الإنسان بوصفه كائنًا يتكامل عقليًا وجماليًا عبر التلقي.

ملامح الخطاب في هذا النموذج:

ــ تداخل الحسي بالعقلي: تبدأ المداخلة بالحديث عن "اللذة الحسية" المرتبطة بالصوت، لكنها لا تلبث أن تتحول إلى تأمل عقلي، يرى أن تهيّج الحس ما هو إلا تمهيد لإثارة الشوق العقلي. وهنا تُسقط الموسيقى على "المعرفة" نفسها، فالطرب ليس حالة جسدية فقط، بل هو باعث على "تحقيق الذات" العقلية.

ــ الخطاب المركّب: نجد تراكبًا بين لغة فلسفية تحليلية ("العقل لا يعشق إلا بعد أن ينالها في فضاء البسيط")، ولغة تصويرية جمالية ("فبهر الإحساس، وبثّ الإيناس، وشوّق إلى عالم الروح والنعيم") [١] هذا المزج بين الحجاج العقلي والإيحاء البلاغي يُنتج خطابًا معقدًا يحرّك الذهن والوجدان معًا.

ــ حضور الذات المفكرة والمُتلقية: لا يُخفي التوحيدي تأثره بهذه الأقوال، بل ينقل استجابة "أبي زكريا الصيمري" في نهاية النص وهو يقول: «ما أبعد نظر هذا الرجل! وما أرقى لحظه!» [٢] بهذا، تتجلى الذات المفكرة والمتذوقة في الوقت نفسه، مما يمنح الخطاب حيوية وحرارة وجدانية.

ــ خطاب الموسيقى كأداة لترقية النفس: لا يُنظر إلى الطرب بوصفه لهوًا، بل ممارسةً تنقل الإنسان من

(١) الامتاع والمؤانسة، ج٢، ص٢١١

(٢) الامتاع والمؤانسة، ج٢، ص٢١٢

الحس إلى العقل، ومن النفس إلى الروح، ومن العالم المادي إلى العالم المثالي، أي أن الخطاب ينتمي إلى تقليد صوفي وفلسفي يرى في الجمال طريقًا إلى الكمال.

ــ الإيحاء بالتراتب الوجودي: الحس في الأسفل، والعقل في الأعلى، والموسيقى واسطة الوصل بينهما. هذا التقسيم يوحي برؤية كونية هرمية، يتكامل فيها الجسد مع الروح ضمن نظام رمزي دقيق، وهو جزء من "تشكيلة خطابية" تؤمن بأن الجمال طريقٌ للمعرفة.

وفي الليلة الخامسة يتمركز خطاب أبي حيان التوحيدي فيها حول وصف شخصيات أدبية وفكرية، أبرزهم "أبو إسحاق"، في سياق حواري يتسم بطابع نقدي تأملي خفي، يكشف من خلاله التوحيدي آليات التفاضل الثقافي، وآراءه في رجالات عصره، مع توظيف ذكي للمديح والنقد في آن واحد، وهي إحدى أبرز سمات الخطاب المضاد في النص.

يتخذ الخطاب شكلًا سرديًّا تقييميًّا، يتنقل فيه التوحيدي بين:

التوصيف الأدبي والفلسفي (كما في وصف أبي إسحاق)،

والنقد الاجتماعي والسياسي (كما في الإشارة إلى جهله بالنحو أو ضعفه)،

وصولًا إلى الإفصاح عن مواقف خفية تتعلق بالمحاباة والحسد وتوزيع الفضل بين أهل الفضل والسلطة.

هنا، لا ينقل التوحيدي فقط رأيًا، بل يفضح بنية الذوق الأدبي الرسمي الذي يهمّش بعض المفكرين ويعلي من شأن غيرهم، دون معيار موضوعي.

أذ يركز التوحيدي على تقديم صورة أبي إسحاق بوصفه رجلًا ذا "معاني فلسفية، وطباع عراقية"، لكنه في الوقت نفسه يعاني من اهمال نقدي واضح بسبب بعض القصور في النحو. في قوله: «وإني لأرحم من لا يسلم له هذا الوصف، لأنه إما أن يكون جاهلاً، وإما عالماً..» (١)

يتضمن هذا الحكم إدانة خفية لدوائر النقد الأدبي في عصره، التي لا تُنصف القيم الجمالية الحقيقية بل تتبع الأهواء والحسد، وهذا ما يمثل جوهر الخطاب المضاد. كما يصرح أن عدم الاعتراف بفضل أبي إسحاق لا يعود إلى نقصٍ فيه، بل إلى "الجهل أو الحسد"، وهما عاملان يكشفان خلل المنظومة الثقافية المهيمنة.

ويظهر التوحيدي في هذا النموذج ناقدًا لآلية السلطة، خاصة حين يتحدث عن الشخص الذي «أمن أن يقال له: لم فعلت؟ ولم لم تفعل؟» مما يوحي بوجود نقد ساخر للسلطة المطلقة التي لا تُسأل.

الجملة التالية ترسّخ هذا النقد: «وهذا باب لا يتفق لأحد من خدم الملوك إلا بجد سعيد...» (٢)

وهي تحمل سخرية واضحة من مبدأ "الحظ" أو "القدر السلطوي"، الذي يصنع مكانة البعض لا الكفاءة أو العقل.

ويصف حالة أحدهم بأنه «لو أن عجوزًا بلها.. أقيمت مقامه...» (٣) فإن هذا تعريضٌ صريح بالرداءة المنتفخة، ويؤسس لخطاب ساخر، يتخفى في بلاغة عالية، وينتقد السلطة الثقافية والسياسية دون مواجهة مباشرة.

ثم يعود ليؤكد أن تلك السلطة تتصرف بلا عقل ولا عدالة: «ولو جرت الأمور على موضوع الرأي وقضية العقل...». (٤)

(١) الامتاع والمؤانسة، ج١، ص٦٨
(٢) الامتاع والمؤانسة، ج١، ص٦٩
(٣) الامتاع والمؤانسة، ج١، ص٦٩
(٤) المصدر نفسة، ن ص

وهو تصريح يعري الواقع، ويؤسس لما نسميه اليوم بالمعارضة الرمزية داخل النص.

ويختتم التوحيدي هذا الخطاب بحكاية فيها مفارقة ساخرة عن البيعة، يُقصد بها فضح سذاجة العامة وضعف الوعي التاريخي، ويقدمها بأسلوب تهكمي واضح. فالمزج بين ذكر "رسول الله" و"صفين" بطريقة خاطئة يُقابل بتعليق ساخر ذكي: «قد علم الأمير هذا، ولكن أحب التسهيل على الناس...» (١)

مما يكرّس روح الخطاب المضاد في تعرية الجهل، وتقديمه في ثوب النكتة السوداء.

أذ تكشف الليلة الخامسة عن خطاب ناقد ساخر خفي، يعلي من مكانة الفكر الحر، ويقاوم أنظمة التراتب السلطوي، سواء أكانت سياسية أو أدبية. يوظّف التوحيدي في هذا النص أدوات البلاغة، والسخرية، والتقييم الحاد، لإبراز خطابٍ مضاد يرفض الخضوع للصورة الرسمية للأدب والسلطة، ويمنح الصوت للهامش والعقل والجدارة الفكرية.

٥.الخاتمة

يمكننا تلخيص أبرز النتائج التي توصلنا إليها:

ــ مكن الخطاب المضاد بوصفه استراتيجية ثقافية من تشييد خطاب مضاد للسلطات المهيمنة (السياسية، الدينية، الثقافية) عبر آليات ذكية، كالسخرية، والمفارقة، والتناص، والانزياح الدلالي، مما مكّنه من نقد الواقع دون الاصطدام المباشر بمنظومة القمع.

ــ التعددية الخطابية اتسم كتاب "الإمتاع والمؤانسة" بتنوع الخطابات بين الفلسفي، والأدبي، والاجتماعي، والصوفي، مما جعله نصًّا مركبًا يعكس أزمة المثقف في عصر انقسام السلطة وصراع الهويات.

ــ السياق التاريخي كفاعل أساسي كشف البحث أن اضطرابات العصر البويهي (ضعف الخلافة، صعود النفوذ الفارسي، التقلبات السياسية) شكلت خلفيةً حاضنةً لخطاب التوحيدي النقدي، حيث حوّل المثقفُ مأساته الفردية إلى رؤية نقدية للعالم.

ــ اللغة بوصفها أداة مقاومة وظّف التوحيدي البلاغة العربية (كالتورية، والانزياح، والانزياح المجازي) لخلق خطابٍ مزدوجٍ، يخاطب الظاهرَ ويُضمّن الباطنَ احتجاجَه، مما يؤكد أن اللغة كانت ملاذه الأخير لمواجهة الهيمنة.

ــ تمكَّن التوحيدي، عن طريق تمرده الخفي، من فضح السلطة المعرفية المهيمنة في عصره، من خلال نقده لـ"إخوان الصفا" والمتكلمين – أزمات النخبة الثقافية، وانتقد محاولات التلفيق بين الفلسفة والدين، داعيًا إلى وعيٍ عقلانيٍّ يرفض الانسياق وراء الخطابات المُهيمنة.

ــ الجمالية والفكر مزج التوحيدي بين العمق الفلسفي والجمالية الأدبية، فجعل من نصّه منصةً للحوار بين العقل والوجدان، وكشف أن الفنّ والأدب ليسا ترفًا، بل أداتان للمقاومة وإعادة تشكيل الوعي.

ختامًا، يظلُّ أبو حيان التوحيدي نموذجًا للمثقف العضوي الذي حوّلَ موقعه الهامشي إلى قوةٍ نقدية، وخطابه في "الإمتاع والمؤانسة" شاهدًا على أن الأدبَ ليس سردًا للأحداث، بل فعلُ مقاومةٍ وتحرير. وقد أثبت هذا البحث أن التراثَ العربي يحملُ في طياته أصواتًا ثائرةً تنتظرُ من يكتشفها لتعيدَ تعريفَنا بذواتنا وتاريخنا.

(١) المصدر نفسة، ن ص

المصادر والمراجع

١- ابو حيان التوحيدي فيلسوف الادباء وأديب الفلاسفة، أحمد عبد الهادي، دار الثقافة القاهرة، ١٩٩٧.

٢- أبو حيان التوحيدي، ناقدًا، كلالي مسعود، رسالة ماجستير، جامعة وهران، الجزائر، ١٩٨٦م.

٣- الامتاع والمؤانسة، أبي حيان التوحيدي، بيروت لبنان، ج٢، ٢٠١١.

٤- تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى، ج ٢، ١٩٨٤م.

٥- تاريخ الادب العربي، عصر الدول والامارات شوقي ضيف، دار المعارف، ط ٢، ١١١٩.

٦- خطاب السلطة والخطاب المضاد، عبد الواسع الحميري، ط١، ٢٠١٤.

٧- طبقات الشافعية، ابن قاضي شهبة، تحقيق د. الحافظ عبد العليم خان، دار النشر: عالم الكتب، بيروت، ج١، الطبعة الأولى: ١٤٠٧ هـ.

٨- طبقات الشافعية الكبرى، السبكي، تحقيق محمود محمد الطناحي، مكتبة البابي الحلبي، ج٣، الطبعة الأولى، ١٩٦٤م.

٩- مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، الزواوي بغورة، ١٩٩٨.

١٠- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، المتوفى عام ٦٢٦هـ، بتحقيق إحسان عباس، الطبعة الأولى، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ج٥، ١٩٩٣م.

Sources and References

1- Abu Hayyan al-Tawhidi: Philosopher of Writers and Writer of Philosophers, Ahmad Abd al-Hadi, Dar al-Thaqafa, Cairo, 1997.

2- Abu Hayyan al-Tawhidi: A Critic, Kalali Masoud, Master's Thesis, University of Oran, Algeria, 1986.

3- Al-Imtaa' wal-Mu'anasa (Enjoyment and Sociability), Abu Hayyan al-Tawhidi, Beirut, Lebanon, Vol. 2, 2011.

4- Tarikh al-Adab al-Arabi (History of Arabic Literature), Shawqi Daif, Dar al-Ma'arif, Cairo, First Edition, Vol. 2, 1984.

5- Tarikh al-Adab al-Arabi: The Era of States and Emirates, Shawqi Daif, Dar al-Ma'arif, Second Edition, 1119.

6- The Discourse of Power and the Counter-Discourse, Abd al-Wasi' al-Himyari, First Edition, 2014.

7- Tabaqat al-Shafi'iyya (The Classes of the Shafi'I Scholars), Ibn Qadi Shahba, edited by Dr. al-Hafiz Abd al-Alim Khan, Publisher: Alam al-Kutub, Beirut, Vol. 1, First Edition: 1407 AH. 8. Al-Tabaqat al-Shafi'iyya al-Kubra (The Major

Classes of Shafi'I Scholars), by al-Subki, edited by Mahmud Muhammad al-Tanahi, Maktabat al-Babi al-Halabi, vol. 3, first edition, 1964.

9- The Concept of Discourse in the Philosophy of Michel Foucault, by al-Zawawi Baghoura, 1998.

10- Mu'jam al-Udaba' (Dictionary of Writers), by Yaqut al-Hamawi, who died in 626 AH, edited by Ihsan Abbas, first edition, Beirut, Dar al-Gharb al-Islami, vol. 5, 1993.